أوراق ثقافية
١٣

الغرب المسيحي والمسألة اليهودية

د. بشير نافع



مركز فلسطين للدراسات والبحوث

الغرب المسيحي
والمسألة اليهودية

د. بشير نافع

مركز فلسطين للدراسات والبحوث

بسم الله الرحمن الرحيم

مركز فلسطين للدراسات والبحوث

أنشيء مركز فلسطين للدراسات والبحوث بقطاع غزة في العام ١٤١٦هـ الموافق ١٩٩٥ م كمؤسسة أكاديمية مستقلة للمساهمة في تنمية الوعي الفكري والسياسي في المجتمع الفلسطيني .

ولتحقيق أهدافه يهتم المركز بدراسة وبحث القضايا السياسية والإقتصادية والإجتماعية والإستراتيجية والثقافية والحضارية المتعلقة بالقضية الفلسطينية بأبعادهاالعربية والإسلامية والدولية .

وتوقاً لتحقيق إنجازمميز ، يحاول المركز المساهمة في خلق بيئة أكاديمية منفتحة وإبداعية أمام العلماء والمفكرين والباحثين . بالإضافة إلى برنامج البحوث والدراسات يعقد المركز المحاضرات العامة والندوات وورش العمل البحثية المتخصصة .

وفى إطار رسالته ، يصدر المركز سلاسل من الكتب والتقارير والأوراق البحثية غيرالدورية بالإضافة إلى مجلة " فلسطين " .

***

الطلبات والمراسلات ترسل إلى العنوان التالي :

مركز فلسطين للدراسات والبحوث

ص.ب:١٣٥٤

غزة- قطاع غزة

هاتف : ٩٧٢٧-٢٨٢..٣١

فاكس : ٩٧٢٧ -٢٨٤٢٩٣١

العنوان الإلكتروني: Psr @ Palnet.com

موقع على الانترنت : WWW.PCSR.ORG

مركز فلسطين للدراسات والبحوث

الطبعة الأولى - يوليو ٢٠٠٠

مطابع التوفيق غزة ش. الوحدة

تصدير:

يعتمد الكيان الصهيوني القائم على أرض فلسطين اعتمادا هائلا على الدعم الاقتصادي والسياسي الذي تقدمه له دول المعسكر الغربي الرأسمالي، وبشكل خاص الولايات المتحدة الأمريكية .كما ترتبط الحياة العلمية والثقافية، والمنظومة الأخلاقية السائدة في المجتمع الصهيوني ارتباطاً عميقا بمصدرين رئيسيين :الأول وهو القيم التوراتية والتلمودية اليهودية، والثاني منظومة قيم النموذج الغربي الحديث والمعاصر.

ولا يكاد يختلف إثنان من مؤرخي الحركة الصهيونية والمسألة اليهودية، على أن قيام (دولة إسرائيل)كان مستحيلاً دون التحالف السياسي العميق بين الحركة الصهيونية ودوائر المؤسسة الاستعمارية البريطانية .ذلك التحالف الذي بدأ في الظهور والتشكل منذ نهاية القرن التاسع عشر، ثم ألقى بجذوره في السياسية البريطانية منذ وعد بلفور .وقد يبدو غريبا للوهلة الأولى كيف كان التحالف الغربي- الصهيوني يتزايد عمقا وشمولا طوال العقود الماضية، وخاصة أن اليهود لم يضطهدوا أو يحاربوا أو يعزلوا في تاريخهم كله كما اضطهدوا وحوربوا وعزلوا في المجتمعات الغربية، سواء في العصور القديمة والوسطى أو في مطلع عصر الدولة القومية الغربية الحديثة.

يجر هذا التناقض بين التاريخ والسياسية- في أحيان كثيرة- صانعي القرار العربي الرسمي، وقادة العمل الشعبي وقطاعاً واسعاً من المفكرين والمعلقين السياسيين والباحثين، إلى اضطراب كبير في تقديرهم للموقف، وفي تحديد أولويات العمل فيما يخص القضية الفلسطينية .

فهناك من يرى إمكانية فك التحالف الغربي- الصهيوني وهناك من يعتقد بأن دولة الكيان الصهيوني ليست أكثر من قاعدة استعمارية عميلة للغرب، بل

هناك من يعتقد العكس أي أن النفوذ اليهودي هو الصانع الحقيقي للقرار الغربي .كما ينسحب هذا الاضطراب على معظم النظريات الأحادية الجانب التي حاولت أن تفسر قيام الدولة الصهيونية على أساس نظرية التحالف الطبقي بين الرأسمالية اليهودية في أوربا والرأسمالية الأوروبية للتخلص من قطاع واسع من الطبقة العاملة اليهودية، أو على أساس تحرك المشاعر القومية اليهودية وسط أجواء النهوض القومي الأوروبي، أو على أساس نظرية المؤامرة التي تقول بهيمنة اليهود على القرار الدولي منذ قرون طويلة.

تشمل هذه الدراسة بشكل خاص، ملاحقة سريعة لتاريخ الكنيسة الغربية (الكاثوليكية)حتى نهاية مرحلة النهضة .وهي المرحلة التي أظهرت التشققات الرئيسية في جسم وروح ا لكنيسة الغربية، وأرست القواعد لحركة الإصلاح الديني (البروتستانتية) في أوروبا، التي كان لها الدور الأبرز في تغيير الموقف المسيحي والنظرة الاجتماعية الأوروبية من اليهود .تعتبر هذه المرحلة كذلك نقطة الانطلاق لنمو المؤسسة الاستعمارية وتبلور المشروع الاستعماري، الذي كان محدودا في إطار حركة النهب التجاري لـ(العالم القديم)والاستيطان لـ (العالم الجديد)، طوال مرحلة النشاط الاستعماري البرتغالي-الأسباني في القرنين السادس عشر والسابع عشر، ولم يأخذ بعد نمط الهيمنة الحضارية الشاملة ا لتي كانت ولم تزل- سمة المشروع الاستعماري الحديث والمعاصر الأساسية .تحاول هذه الدراسة تقديم صورة للحظة التحول في التاريخ الأوروبي التي أتاحت فيما بعد للتقاطع الصهيوني-الإمبريالي أن يتبلور.

الغرب المسيحي والمسألة اليهودية

د. بشير نافع*

يتفق مؤرخو المسيحية على أن بولس (الرسول) كان أهم شخصية مسيحية في القرن الميلادي الأول .بل أن جزءً كاملا من العهد الجديد هو أعمال الرسل، جعل مادته الرئيسية أعمال وبعثات ورسائل بولس(١) ينحدر بولس، الذي آمن بالبشارة المسيحية بعد وفاة السيد المسيح عليه السلام، من عائلة يهودية تمتعت بالجنسية الرومانية .وفيما بعد، ومن خلال رحلاته إلى قبرص وآسيا الصغرى وإلى قلب الدولة الرومانية، ترك تأثيرا كبيرا على العقل المسيحي، إلى الدرجة التي يمكن أن يقال بها أنه كان الصانع الحقيقي لما يعرف اليوم بالمسيحية، وبشكل خاص المسيحية الغربية(٢)تصور بولس في مطلع حماسه الفائق بدعوة السيد المسيح، بعد عودته من دمشق، أن بإمكان اليهود من بني قومه أن يمروا بتجربة الإيمان التي مر بها وأن ينتقلوا إلى صف الدعوة الجديدة .ولكن الصدود اليهودي العنيف في فلسطين ومحاولات بعضهم لاغتياله، ثم رفض تجمعاتهم في المدن الرومانية، الآسيوية والاوروبية على السواء، لما حمله بولس، كل ذلك أدى به في النهاية لأن يدفع الدعوة إلى خارج التجمعات اليهودية .وقد برز من البداية خلاف في وجهة النظر بين التجمع المسيحي الأول(مجموعة القدس)، الذي انحدرت عناصره من يهود فلسطين، بما في

---

* أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي بالكلية الاسلامية – لندن.

-أستاذ مشارك للدراسات الاسلامية في كلية بيرك بيك – جامعة لندن.

ذلك الحواريون(الرسل)، وبين بولس ومجموعته ذات الأغلبية غير اليهودية.

كانت مجموعة القدس ترى أن أيمانها بأن عيسى هو السيد المسيح لا يعني هجرانها للقانون أو الشريعة اليهودية واستمرت عناصرها في التعبد داخل المعابد اليهودية معتبرة نفسها يهودية الدين والولاء بشكل عام، وإن كان ذلك ببعض الفروق عن بقية اليهود(٣) وذلك في الوقت الذي بدأت فيه رؤية بولس في التطور نحو اعتبار السيد المسيح ذا طبيعة لاهوتية خلاصية، وهو ما اتضح في رسالته إلى أهالي ثيسالونيا .كان بولس يعتقد أن القانون (الشريعة)الذي يحكم على الإنسان بالموت لأنه لم يتبع تعاليمه هو قانون ذو قوة شيطانية، وأن هذه القوة قد هزمت وتم التغلب عليها بصلب السيد المسيح .ومن هنا جاءت رؤيته للمسيح كمخلص، وجاء بالتالي افتراقه ومجموعته عن كنيسة القدس(٤)

وقد أصيب معسكر بولس في سنة ٦٥م، بضربة بالغة إثر اعتقاله وإزاحته عن الساحة، وبداوكأن مصير المسيحية كلها قد أصبح في يد مجموعة القدس (اليهودية) المسيحية.(٥)

ولكن الدولة الرومانية ما لبثت، في تحركها ضد الثورة اليهودية في فلسطين، أن قامت بتدمير القدس في عام ٧٠ميلادية .أدى ذلك إلى تقويض المجتمع اليهودي في المدينة، وإلى انهيار كنيسة (مجموعة) القدس، وإعادة ميزان القوة لصالح المسيحية غير اليهودية في شمال الدولة الرومانية .وبدا منذ عام ٧٠ ميلادية وكأن المسيحية قد ولدت من جديد.

وفي الوقت الذي انتصرت فيه رؤية بولس بالاستقلال عن اليهودية،

تمت بشكل أو بآخر عملية التحام بين رؤية شخصية السيد المسيح التاريخية التي حافظت عليها كنيسة القدس، ورؤية بولس له كمخلص للعالم (٦) وشيئاً فشيئاً تحرك الدين الجديد بعيدا عن السياق اليهودي ودخل إلى عالم الهيلينية الرومانية.

ومع نهاية القرن الميلادي الأول، كانت التجمعات المسيحية قد أصبحت في أغلبها مشكلة من عناصر غير يهودية، وأصبح بالإمكان رؤية المسيحية- على الرغم من جذورها اليهودية- حركة مستقلة، وليس فرقة دينية يهودية .ورغم أن أيا من الباحثين لم يستطع أن يثبت أن الكتب الأولى من العهد الجديد قد كتبت بالآرامية ثم ترجمت إلى اليونانية، إلا أن المؤكد أن انتشار العهد الجديد الأوسع في تلك الفترة كان بنسخ يونانية. وصار الدين الجديد قابلا للتشكل طبقا للعقلية الهيلينية اليونانية، خاصة في الجزء الشمالي من الدولة الرومانية(٧).رغم أن هناك قطاعا واسعا من المتكلمين بالسريانية قد دخل أيضا في الدين الجديد.

ولا خلاف في أن الاضطهاد الذي مورس ضد المسيحية في عقودها الاولى كان اضطهادا يهوديا في معظمه، خاصة في الوقت الذي لم يكن قد اكتمل فيه الفصل بين الدين الجديد واليهودية، وبدا وكان ا لفرقة المسيحية تسعى لتقويض أعمدة المؤسسة اليهودية .ولكن حملة الاضطهاد اليهودية تراجعت تدريجيا، مع ابتعاد المسيحية عن أصولها اليهودية، ليحل محلها الاضطهاد الروماني الرسمي، وذلك حين أخذ الدين الجديد في ابتلاع تجمعات رومانية بأكملها، بما في ذلك المعابد الوثنية القديمة ومهرجاناتها وتقاليدها(٨).

وقد وصل الأمر إلى أن يكرس الإمبراطور ديسيوس (٢٤٩ -٢٥٢م)كل موارد الدولة لإخضاع المسيحيين .واستمر الوضع بين مد وجزر إلى أن أصدر الامبراطور قسطنيطين في عام ٣١٣م، قانون حرية العبادة للمسيحيين، وعامل قسطنطين في تلك المرحلة الديانة اليهودية على المستوى نفسه مع المساواة مع الديانات الأخرى في الإمبراطورية(٩).

في عام ٣٢٤م، خلف قسطنطين الإمبراطور ليسنيوس على رأس المقاطعات الشرقية؛ وأصبح بالتالي حاكما لكل الإمبراطورية الرومانية، حيث لاحظ الانقسام الثيولوجي الواسع بين مسيحيي المقاطعات الشرقية، فدعا إلى مؤتمر عام لكل بطاركة الكنيسة، عقد في نيقيا Nicaeaفي عام ٣٢٥م، وترأسه قسطنطين شخصيا .وقد انتهى المؤتمر إلى توحيد الموقف المسيحي الغربي الرسمي حول عدة مسائل، بما في ذلك طبيعة السيد المسيح وتاريخ وفاته .ولا شك أن أهم نتائج الاعتراف الروماني الرسمي بالمسيحية، كان (رومنة) المسيحية الغربية، التي لم تبتلع في داخلها المناسبات الاحتفالية الرسمية فقط، ولكن أيضا الهيكلية الرومانية الهرمية وروح التنظيم الروماني، وطبيعته القانونية والإجرائية(١٠).

وبالتحالف بين الكنيسة والسلطة أصبح بإمكان المسيحية أن تصفي حسابات الاضطهاد مع اليهود .وتحت حكم قسطنطين (في مرحلته الثانية)، أصبحت اليهودية تعتبر دينا غير إلهي، ومُنع المسيحيون من التعامل مع اليهود "قتلة المسيح" وفيما كان يرحب بتحول اليهودي إلى المسيحية، عوقب بقسوة كل مسيحي تحول لليهودية، كما أعيد إحياء

قانون هيدريان الذي منع اليهود من الإقامة في القدس، ولم يسمح لهم قسطنطين بدخولها إلا في ذكرى تدمير المعبد لإقامة مراسيم الحداد(١١).

في عام ٣٦١م، تولى جوليان (حفيد قسطنطين)مقعد الإمبراطورية، ودار بروما دورة كاملة ضد المسيحية محاولا إحياء التقاليد الوثنية، ومزاوجاً بين عدائه للمسيحية والمسيحيين وانحيازه وتعاطفه الواضح مع اليهود واليهودية، إلى الدرجة التي حاول فيها بالفعل إعادة بناء المعبد في القدس(١٢) .ولكن ما لبث جوليان أن قتل في حربه ضد الفرس في سنة ٣٦٣م، ومات مشروع المعبد في مهده، وفيما بعد وبتولي الأباطرة المسيحيين للسلطة في روما، عادت أوضاع اليهود إلى التدهور في مختلف أنحاء الإمبراطورية، بدرجات متفاوتة بين منطقة وأخرى ومن إمبراطور إلى أخر، حتى سقوط روما في عام ٤٧٦م، غير ان المؤكد من حصيلة تلك القرون من حياة المسيحية الغربية أن العداء بينها وبين اليهود قد تكرس وتعمق، وبدأ في ترسيب تواريخه وأحداثه ومفاصله الخاصة .حتى أن بعض المصادر تدعي أن اليهود في شمال أفريقيا وأسبانيا تحالفوا مع جيش طارق بن زياد في عام ٧١١م، في أثناء فتح للأندلس ضد المسيحيين الأسبان(١٣)

***

إن من المكن تمييز ثلاث مراحل رئيسية في تاريخ العلاقة بين أوروبا المسيحية واليهود عبر الفترة بين بين عام ٥٠٠ إلى عام ١٥٠٠ ميلادية الأولى، استمرت من القرن السادس إلى الحادي عشر؛ والثانية شملت قرني الحملات الصليبية حتى القرن الثالث عشر؛ والثالثة، وهي فترة

عصر النهضة(١٤).

كان لانهيار روما أمام الغزو البربري واختفاء الإمبراطورية عن الساحة، تأثير مهم على السياق التاريخي للمسيحية الأوربية، إذ تقدم خلفاء بطرس (الرسول)من بطاركة روما(فيما بعد البابوات)، ليحتلوا المقعد(١٥) .لم يكن من السهل أن يفرض بطريرك روما سلطته على بقية البطاركة المسيحيين .ولكن دور البطريرك في الحفاظ على روما من الدمار في مراحل الغزو البربري الأولى، والنظر إلى روما كمهد لرفات بطرس وبولس، واعتبار مقعد البطريركية في روما قد احتل على الدوام بسلسلة متصلة ببطرس نفسه، كل ذلك ساعد في حسم الموقف لصالح بطريرك روما .ولكن المسألة الأكثر أهمية، أن سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية وتمزيق أوروبا بين الممالك والجند، لم يترك إلا المسيحية، وبالتالي كنيسة روما، كقوة موحدة وحيدة في أوروبا الغربية(١٦) ولم يساعد هذا الوضع على تعزيز مواقع بطريرك روما فحسب، لكنه ساهم في إعطاء المسيحية الأوروبية في العصور الوسطى هوية هيلينية أيضا.

كان صعود الإسلام في شرق وجنوب المتوسط، ثم تقدمه إلى أسبانيا ، قد حول في نظرة المسيحية وطموحها للتوسع من مراكزها الأوروبية الجنوبية إلى شمال وغرب أوربا .ففي سنة ٧٣٢م، استطاع الملك الفرنسي شارل مارتل في معركة بواتييه إيقاف الزحف الإسلامي إلى قلب أوروبا، وذلك في الوقت الذي كان فيه البابا غريغوري الثالث قد أدار ظهره نهائيا لإمبراطور الدولة الرومانية الشرقية، وبدأ في البحث عن دعم سياسي لسلطة الكنيسة .فدعا شارل مارتل لتولى سلطة روما وإعلانه

إمبراطورا، ولكن مارتل تجاهل الدعوة، إلا أن ابنه بيبين وافق بعد ١١ عاما على أن ينصب ملكا بسلطة بابا وأخيرا في يوم عيد الميلاد لعام ٨٠٠م، نصب شارلمان حفيد شارل مارتل أمبراطورا للدولة الرومانية المقدسة بسلطة البابا وكنيسة القديس بطرس في روما .وهكذا أعيدت فكرة الإمبراطورية إلى الحياة ولكن الواقع كان أكثر تمزقا من أن تستطيع قوة شارلمان السياسية توحيده .ولخمسة قرون قادمة لم يكن هناك امبراطور في أوروبا الإقطاعية أقوى من البابا نفسه، ولم تكن هناك مؤسسة قادرة على أن تسمع صوتها عبر الحدود والقواطع الأوروبية مثل الكنيسة الكاثوليكية(١٧).

ولكن الكنيسة لم تكن لتبدي ذلك الاستعداد والحيوية لوراثة الدولة الرومانية لولا تلك القواعد الفكرية المهمة التي أرساها أوغسطين (٣٥٤-٤٣٠م) قبل قليل من سقوط روما أمام غزوات القبائل الشمالية .ولا يكاد يوجد خلاف على أن هناك شخصية بعد بولس تركت أثرا في شمولية وأهمية الأثر الذي تركه أوغسطين على المسيحية ا الغربية .وضع أوغسطين باستمرار، وفي معظم نصوصه المكتوبة الكنيسة الكاثوليكية في موقع سام ونهائي.وقد اعتقد أن موقف الله من الإنسان لا يمكن أن يعرف إلا من خلال الإيمان .

فالإيمان هو الدليل إلى الحقيقة .وأن هذا الإيمان هو ما تعلمه النصوص المقدسة(الإنجيل) والكنيسة .وقال أنه شخصيا ما كان له أن يعرف الكتاب لو لم تعلن الكنيسة أنه الحق. بل انه أكد بعمق على أن الكنيسة الكاثوليكية، كحقيقة مرئية موزعة في العالم، هي ببطاركتها استمرار

لكنيسة الرسل .ورغم أنه اعتقد أن البطاركة، بما في ذلك بطريرك روما قد يخطئون إلا أن الكنيسة الكاثوليكية هي جسد المسيحية، وخارجها لا يوجد خلاص(١٨) .كان أوغسطمن يرى بالتالي، عكس العديد من معاصريه، أن نهاية الدولة الرومانية لا تعني انهيار قلعة النظام والحضارة؛ لأن مملكة الله ذات النظام الإلهي اللانهائي هي التي ستحل في العالم في النهاية .إن مؤتمر الكنيسة في نيفيا(٣٢٢م) الذي واجه بشكل خاص المسألة "الأريوسية" حول " بشرية المسيح"، ومؤتمر قلقدينيا (٤٥١م) الذي فصل الكنيسة الغربية عن الشرقية في المسألة " الزينوية " حول الطبيعة الواحدة أو الطبيعيتين، كانا حجري الأساس فمن تشكل العقيدة الكاثوليكية .غير أن أوغسطين هو الذي أعطى الكنيسة قوتها ومبررها الفكري للصعود إلى كرسي السلطة بعد سقوط روما؛ لتصبح هي الحاكم الفعلي حتى عصر النهضة، ولتكتسب :قوة الحرمان لمن خالفها، والاضطهاد لمن بحث عن خلاص خارجها، والمغفرة لمن دفع الثمن.

كانت المسيحية تدفع بحدودها شيئا فشيئا باتجاه الشمال والغرب خلال القرون التي تلت سقوط روما وانفتاح شمال وغرب أوروبا على جنوبها؛ ومع مطلع ا لقرن العاشر، كانت قد وصلت إلى شمال ألمانيا؛ الدانمارك؛ السويد؛ النرويج؛ وأيسلندا.ولأكثر من قرن، حاول الصليبيون السويديون جهدهم لفرض المسيحية على فنلندا وأمام مقاومة فنلندية عنيدة .وفي عام ١١٥٥م، هزم الفنلنديون هزيمة ساحقة على ضفاف "بايها غاثي" وأتم الغزاة تعميد جنود الجيش الفنلندي بإغراقهم في البحيرة، اختفت أجسادهم في المياه العميقة، ولكن أرواحهم أنقذت على أي حال!! .و

في هذا العالم المسيحي الواسع، حيث الكنيسة هي الرابط الوحيد، كان اليهود وحدهم يتعبدون بدين آخر ويقيمون طقوسا مختلفة .وفي عالم ارتبط فيه خلاص الإنسان بالكنيسة، كان اليهود وحدهم خارج هذه الكنيسة .وإذا كانت الكنيسة هي التجسيد الحي للمخلص، ففي قلب الضمير المسيحي، كان اليهود هم قتلة المسيح لكن واقع اليهود في تلك المرحلة من تاريخ أوروبا كان أكثر تعقيداً فمن ناحية، كانت هناك عزلة واضطهاد ومذابح من وقت لآخر، ومن ناحية أخرى كانت هناك حاجة حقيقية لوجودهم ضمن النظام الإقطاعي .وقد عمل الاثنان معا" الضمير "التاريخي المسيحي والحاجة الضرورية، على تحديد مواقع التجمعات اليهودية داخل جسم الدولة الرومانية المقدسة؛ حتى بدء الحروب الصليبية .

هكذا حافظت الكنيسة في تلك المرحلة وبشكل عام على موقف لين من اليهود، مثله إعلان البابا غريغوري في عام ٥٩١م، الذي أكد على منع إجبار اليهود على اعتناق المسيحية .كان البابا يأمل بذلك في تحولهم إلى المسيحية في النهاية عن إيمان صادق.ويتوجس في الوقت نفسه من تحولهم الزائف واندساسهم داخل الجسم المسيحي(١٩).

لكن ذلك لم يمنع من إبقاء المجتمعات اليهودية في المدن الأوربية معزولة عن المسيحيين، وحظر الزواج المختلق وفرض الممالك الأوروبية ضرائب باهظة على اليهود(٢٠) .ساعد ذلك اليهود في المحافظة على حياتهم وقوانينهم وطقوسهم ضمن إطار من الحكم الذاتي غير المعلن، لكنه أعطاهم أيضا صفة المجتمع القبلي المعزول ،حيثيعلو ولاء جزء القبيلة في

آخن (ألمانيا)وولاء جزئها الآخر في بابل على ولائها للدولة الرومانية.

بيد أن الكوارث ما تلبث أن تقع عندما يصادف-مثلا- احتفال اليهود بعيد خلاصهم مع أسبوع الآلام المسيحي حيث تبدأ المذابح .بل إن التقاليد جرت في مدينة تولوز على أن يصفع المسيحي يهوديا في يوم الجمع الحزينة(٢١).

كان المجتمع الإقطاعي يقوم على ثلاث فئات اجتماعية أساسية :النبلاء الذين حملوا مسئولية الحرب والقتال والحكومة المحلية، والقساوسة الذي حملوا مسئولية الصلاة واللحمة الفكرية وحرسوا بوابة الكنيسة، والعامة من الخدم والعبيد الذين كان عليهم مسئولية الكدح والعمل في المزارع والمدن.لم تكن أوروبا قد ولدت بعد طبقتها البرجوازية النشطة من التجار، وقد ترك هذا المجال بالتالي لليهود (٢٢) .كان اليهود حلقة المال الرئيسية بين القصر ورعاياه، و" بنك" الشارع الوحيد .وفي تلك الفترة بالذات، بدأ المجتمع المسيحي الأوروبي في الربط بين اليهودي والربا ،واستدعى ذلك بالتالي ربا الفريسيين في عصر السيد المسيح، بكل ما في الاستدعاء من انعكاسات دينية وأخلاقية .

كانت الحاجة لليهود هي التي شجعت شارلمان(القرن التاسع) على فتح المجال لهم للإقامة في أنحاء الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وخاصة على الاستقرار في مدنها، لاعتقاده بان ذلك سيساعد على ازدهار التجارة والحرف فانتشرت بالتالي مستعمراتهم ليس في ألمانيا فحسب بل وفي بوهيميا وبولندا والأراضي السلوفاكية أيضا .

وفي بعض الأحيان، كان الحكام يتدخلون لحماية اليهود من غضب

العامة والكنيسة معا، كما حدث في زمن لويس خليفة شارلمان الذي جمع إلى جانب عطفه على اليهود وزواجه من يهودية اعتقادا قويا بضرورتهم المالية(٢٣).

ورغم الاضطهاد والمذابح المتكررة والعزلة الاجتماعية، أو ربما بسبب تلك العزلة كان اليهود، هم أحرار المجتمع الإقطاعي، في الوقت الذي كان فيه المسيحيون الأوروبيون من العامة هم سجنائه، ولم تعاملهم الكنيسة ولا المؤسسة الاقطاعية معاملتها لغير المؤمنين .فلم يحارب اليهود حربا شاملة معلنة، ولم يقتلوا كسياسية، ولم يجبروا على اعتناق المسيحية. ولعل هناك سببا مهما لذلك يتعلق بأزمة الكنيسة ذاتها مع المسألة اليهودية :فقد كان هناك داخل الكنيسة- واستمرار لسياسية غريغوري- من يعتقد أن الليونة مع اليهود ستؤدي في النهاية لتحولهم إلى المسيحية، ذلك أن عدم تحولهم أو تجاهلهم سيشكل مأزقا للدين المسيحي ذاته. فتجاهلهم أو تركهم على دينهم يعني أن المسيح لم يكن عالمياً، بينما يعني التخلص منهم أنهم سينتهون بدون تصديقهم برسالة المسيح(٢٤).وفي الوقت نفسه، اتخذت جميع الإجراءات التي تمنع اختلاطهم بالمجتمع المسيحي وتأثيرهم عليه .وبسخرية كاملة من التاريخ والدين اليهودي، طبقت المؤسسة الإقطاعية على اليهود قوانينهم التلمودية نفسها؛ فمنعتهم من أن يصبحوا حكاما أو ملوكا أو أن يستلموا بأي شكل دفة المؤسسة الاقطاعية؛ (فهي بلاد مسيحية على أية حال). ولكن ما كان لهذا الوضع المزدوج أن يستمر إلا إلى بداية حقبة الحملات الصليبية على الشرق حيث أخرجت الكاثوليكية أسوأ ما في جعبتها ضد اليهود وضد أسوأ أدوارهم

التاريخية على الإطلاق :الربا .

***

إذا ما أخذنا في الاعتبار الطبيعة المتغيرة للمسيحية الأوروبية، فقد كانت الحروب الصليبية في جوهرها حروبا دينية .كانت الحرب الكنسية، عندما أصبحت الكنيسة على رأس المؤسسة الإقطاعية الأوروبية .ولاشك أن الكنيسة في نهاية القرن الحادي عشر كانت قد استوت على رقعة هائلة من أوربا الغربية، وتلاشت- إن لم تكن انتهت- الحروب مع قبائل الشمال، التي اعتنق معظمها الكاثوليكية، وذلك في الوقت الذي بدأت فيه علامات الضعف والتفكك في الظهور على العالم الإسلامي .ولعل من الأسباب المباشرة للحروب الصليبية تلك الرغبة التاريخية الكامنة لدى الكنيسة في الاستيلاء على القدس من أيدي المسلمين، وحماية الدولة البيزنطية المسيحية الشرقية من السلاجقة وقوتهم المتصاعدة في شرق البسفور، وبالتالي طموح البابا الهائل في إعادة توحيد الكنيسة، بعد أن تدهورت العلاقات بين الكاثوليك والكنيسة البيزنطية في القرن العاشر إلى أدنى مستوياتها .كما يمكن إضافة سبب آخر مهم إلى جملة الأسباب وهو بداية نمو المدن الإيطالية التجارية، وتطلعها لزيادة وتوسيع التعامل مع الأسواق الشرقية(٢٥).

بدأت ا لحملة الصليبية الأولى بعد خطاب حماسي تحريضي ألقاه البابا أوربان الثاني في مجلس كليرمونت(١٠٩٧) إثر توسلات للمساعدة والنجدة تلقاها البابا من الإمبراطور البيزنطي لدعمه ضد السلاجقة .وقد طالب البابا رعاياه الغربيين بالتحرك لدعم إخوانهم الشرقيين وإنقاذ

الأماكن المقدسة من أيدي الكفار"، في حين كان البابا يأمل أن يدعم هذا التحرك توسيع سلطات وهيمنة الكنيسة على مقدرات أوربا(٢٦).

في سنة ١٠٩٨م، وصلت طلائع الحملة الأولى إلى إنطاكية .وفي العام التالي، كان الصليبيون يرتكبون اكبر المذابح الدموية في تاريخ القدس، ويسيطرون على المدينة المقدسة بالسيف والدماء.

فشلت الحملة الثانية (١١٤٤م) في احتلال دمشق .وفي عام ١١٨٧م، حطم صلاح الدين الأيوبي القوات الصليبية في حطين، ودخل المدينة المقدسة .وفي ١١٨٩م، لم تنجح الحملة الصليبية الثالثة إلا في إعادة السيطرة على عكا، وهي الحملة التي شارك فيها ريتشارد قلب الأسد(٢٧)وبقي حلم إعادة السيطرة على القدس يحوم على أعتاب روما حتى حرك البابا أنوسنت الثالث – أهم باباوات القرون الوسطى – الحملة الرابعة على مصر في عام ١٢٠٢م، لتحطيم قاعدة الدولة الأيوبية الرئيسية .ولكن طموحات تجار البندقية في توسيع نفوذهم التجاري إلى ا لعاصمة البيزنطية في القسطنطينية Constantinople حول مسير الحملة إلى الدولة البيزنطية (الشقيقة) حيث سقطت عاصمتها في يد الصليبيين في عام ١٢٠٤م. وحتى إعادة عكا إلى يد المسلمين في عام ١٢٩١م، لم يكن لأي من الحملات الصليبية الأخرى أثر بارز.

كان من أهم نتائج الحروب الصليبية على الكنيسة والمجتمع الأوربي المسيحي، أنها غيرت من التوجه المسيحي تجاه الحرب، فبعد أن أصبحت المشاركة في هذه الحروب مباركة ومقدسة من الكنيسة وبطاركتها، أصبحت الكنيسة –بالتعبير الأوغسطيني– تسعى لإقامة مملكة الله

بوسـائل وأدوات مملكة الأرض، إضـافـة إلى تنشـيط روابط الرهبـان الدومنيكان والفرنسيسكان في حركة تبشيرية واسعة خارج أوروبا وفي حرب شرسة ضد من أسمتهم الكنيسة بالهراطقة، وكفار الشمال، واليهود معـا(٢٨) وفي مناطق أخرى من أوروبا كـان للحروب الصليبـيـة دور رئيس في الربط بين فلسطين والمسيحية، وفيما بعد بين اليهود وفلسطين والمسيحية (٢٩).

لقد اصبحت الحرب - بمفهومها الكنسي المقدس- بفعل حقبة الحروب الصليبية عميقة في الضمير الأوروبي .ولم تقتصر هذه الحروب بالتالي على المناطق المقدسة في فلسطين، وإنما شملت معظم الشرق الإسلامي، والدولة البيزنطية المسيحية، والكفار البروسيين في الشمال الأوروبي .

وفي سياق التصاعد ا لهائل في المشاعر المسيحية، طالت الحرب اليهود أيضـا لأسباب اقتصادية ودينية معـا، كما استغلها الكرسي البابوي لتصفية خصومه في مختلف أنحاء الإمبراطورية الرومانية المقدسة .فيما يتعلق باليهود بشكل خاص، أشارت بعض المصادر إلى أن ١٠٠ ألف منهم قد قتلوا في أوروبا أثناء فترة الحروب الصليبية(٣٠) . طورد اليهود في أثناء الإعـداد للحملة الصليبـيـة الأولى، وذبحـوا في مـعظم أنحـاء الإمبراطورية الرومانية المقدسة، خاصة في ألمانيا وفرنسا، وكان السبيل الوحيد لإنقاذ أحدهم من الموت هو التحول إلى المسيحية .ففي فرنسا ومنذ نهاية القرن الثاني عشر حتى منتصف القرن الثالث عشر، شهدت عدة مناطق فرنسية تعميدا بالقوة لأطفال اليهود وفصلهم بعيدا عن آبائهم، كما أحرقت العديد من المعابد اليهودية .وفي ألمانيا لم يختلف الوضع كثيرا،

حيث صودرت أملاك اليهود وممتلكاتهم، وطردوا بالكامل من فيينا في ١١٩٦م؛ ومكلنبرغ في عام ١٢٢٥م؛ وفرنكفورت في عام ١٢٤١؛ وبراندنبرغ في عام ١٢٤٣؛ ونورمبرغ في عام ١٣٩٠م.

ولعل تولية أنوسنت الثالث للكرسي البابوي في ١١٩٨م كانت نقطة تحول مهمة في حياة اليهود في أوروبا الإقطاعية .كان أنوسنت الثالث طموحا، قويا، ولديه استعداد كبير لحسم العقبات في وجه سيطرة الكنيسة بأقصى عنف ممكن .وقد أشعل، بين قساوسة الكنيسة وبطاركتها وبين صفوف العامة كذلك، قدرا كبيرا من الحماس الديني والولاء للكنيسة، وذلك في وقت بدأت فيه الحملات الصليبية تثبت عدم جدواها وتراجعها .وقد ازدهرت في عصره فرق الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان، الذين قاموا بدور واسع في حمل رسالة وطموحات الكنيسة.وحركت الكنيسة حملة واسعة قادها الرهبان والقساوسة، ذبح خلاها الآلاف من الألبيجينيين الفرنسيين الذين اتهموا بالهرطقة .كما أثيرت مرة أخرى- وعلى نطاق شعبي واسع- مسؤولية اليهود عن صلب السيد المسيح، بل علاقتهم بفرق الهرطقة المسيحية، بما فلي ذلك الالبيجينيين .وكانت لهذه الأجواء آثرا مدمرة على اليهود أينما وجدوا .وفي عصر أنوسنت الثالث أيضا، فرض المجلس الكنسي الرابع في لاتيران١٢١٥م على اليهود أن يعلقوا شارة صفراء لتمييزهم عن غيرهم، كما أقر المجلس منع اليهود من استلام أي منصب ذي قيمة في الدولة أو بلاط الملوك، إلى جانب حظر ظهورهم في الشوارع في أثناء أيام الفصح، وإجبارهم على دفع ضرائب سنوية باهظة للكنيسة تسلم في يوم الفصح ذاته(٣١).

ثمة عاملان رئيسيان يمكن ان يعزى إليهما تصاعد الكراهية والاستباحة لليهود في أوروبا الكاثوليكية في تلك الحقبة، أولهما ذلك التوجس المسيحي التقليدي من كل ما هو خارج ا لكنيسة .في وقت اشتعلت فيه العواطف الدينية ومشاعر الولاء للكنيسة؛ وأعيد بالتالي التركيز على اليهود باعتبارهم القوة الاجتماعية الوحيدة -داخل أوروبا الكاثوليكية- التي ما زالت ترفض الاعتراف بالخلاص الكنسي، إضافة إلى التذكير بجريمتهم ضد السيد المسيح .أما السبب الثاني والذي لا يقل أهمية عن الأول، والذي سيبقى ليرافق النظرة إلى اليهود لعدة قرون، فكان دورهم في تركيز الثروة والإقراض الربوي .وكان اليهود قد توسعوا توسعا كبيرا في نشاطاتهم المالية الربوية، بعد منعهم من الانتساب للروابط التجارية والحرفية (The Guilds)التي كانت تحمل صفة دينية إلى جانب صفتها النقابية(٣٢).

لم تكن أوربوا قد وصلت بعد إلى ما تسميه الآن "عقلنة "التجارة، بل كان الإقراض لأغراض تجارية نادراً .وكقاعدة كان اللجوء للاستدانة يتم تحت ظروف طارئة ويتم التحكم في النسب الربوية طبقا للضرورة والحاجة وظروف الاستدانة.ورغم أن الوجود والدور اليهودي الربوي قد تكرس لدى القصور الملكية منذ ما قبل الحروب الصليبية، إلا أن تلك الحروب قد صعدت من اعتماد الملوك عليهم.ومع تزايد الاعتماد على اليهود ورعاية ا لأمراء للنشاط الربوي اليهودي، كان السخط الشعبي ضدهم يتزايد؛ حتى ساد الاعتقاد بأن ممارسة الحرب تحت راية الصليب هي الوسيلة الأفضل للتخلص من الديون المتزايدة المستحقة للمقرضين

اليهود(٣٣) وكانت الاستجابة الكنسية للسخط الشعبي واضحة لا تخفى، فقد أصدر مؤتمر لاتيران الكنسي في عام ١١٣٩م قرارا بحرمان كل المرابين ومنع دفنهم كمسيحيين، وحكم عليهم بالعار في حياتهم ومماتهم.

كان من أهم آثار الحروب الصليبية الداخلية على المجتمعات الأوروبية أن اضطر الأمراء والفرسان والملوك إلى رهن أملاكهم وأراضيهم وأحيانا بيع زوجاتهم، من أجل توفير المال الضروري للتجهيز للحرب (٣٤) ومن ثم توالت تحت تلك الظروف القرارات الكنسية والملكية بالسيطرة على أملاك اليهود أو بإعفاء المحاربين من ديونهم أو فوائد الديون العائدة لليهود .ولعل أبرز مثال على ذلك كان القرار الكنسي الذي أصدره البابا يوجين الثالث في الحملة الصليبية الثانية(١١٤٤م)، بإلغاء الفوائد على كل دين اقترضه مسيحي من يهودي، إذا التحق الأول بالحرب المقدسة.

كما شهدت الحملة الصليبية الثانية أيضا تصاعدا هائلا في المشاعر الإنكليزية ضد اليهود، كل اليهود كجنس ربوي، حتى وصلت إلى مرحلة القتل الجماعي في مدينة أوكسفورد .ومع الاستعداد للحملة الثالثة في عام ١١٩٠م، وفي ظل تتويج الملك ريتشارد قلب الأسد، كانت هناك موجة استئصال حقيقية تدور ضد اليهود في انكلترا وفي نهاية الامر ، اصدر الملك إدوارد الأول في ١٨ تموز/ يوليو في عام ١٢٩٠م، أمراً بالاستيلاء على كل أملاك اليهود وإخراجهم جميعا من مملكته قبل عيد " كل القديسين " وقرر إعدام كل من يقبض عليه في البلاد بعد ذلك التاريخ(٣٥).

وكان الملك الفرنسي لويس التاسع قبل ذلك بأربعين عاما (١٢٥٣م) قد أرسل مرسوما ملكيا لفرنسا- أثناء وجوده في فلسطين _بطرد كل اليهود من مملكته ما عدا أولئك الذين سيلتحقون بالتجارة الشرعية والحرفة(٣٦) كان الملك،و هو يخوض حرب خلاصه الروحي ضد المسلمين، يريد أن يؤكد ذلك الخلاص بالقضاء على جرائم اليهود البشعة وإصرارهم على رفض الكنيسة، " مملكة الرب في الأرض وبوابة الخلاص".

***

بدأ نظام من المدارس الملحقة بالكاتدرائيات الكبرى يظهر في شمال أوروبا في القرن الحادي عشر، وكان أهمها على الإطلاق مدرسة باريس. تحولت هذه المدارس فيما بعد إلى جامعات، وأصبحت مراكز للعلوم والآداب الأوربية .في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، كانت تلك المدارس تتميز بمعلميها، أفرادا أو مجموعات قليلة من البارزين، وفيها نشأ الفكر المسيحي المدرسي الذي كان محور اهتمامة الرئيس مسائل الوحي والإيمان والعقل .ومن أهم المدرسيين في القرن الحادي عشر أنسلم Anselmالذي عاش من (١٠٣٤-١١٠٩م).وقد تلاه ألبروتس ماغنوس(١٢٠٦ -١٢٨٠م)، ولكن أهمهم على الإطلاق والذي ترك أثرا على الكنيسة كما لم يترك أي من المدرسيين جميعا، كان توماس الأكويني (١٢٢٤-١٢٧٣م، .(Thomas Aquinas)

انتمى الأكويني لفرقة الرهبان الدومينكان، ولكنه كان يعتبر نفسه أساسا كاتبا ومحاضرا ومعلما أكثر من راهب أوقس .وقد درس في

جامعة باريس عندما كان ابن رشد أكثر شعبية بين مدرسيها من أوغسطين ذاته، فتأثر به إلى جانب تأثره العميق بالفلسفة الأرطسية. وفي ظل بروز الفلسفتين الإسلامية واليونانية في تحديهما للثيولوجية الكاثوليكية جعل الأكويني من مهمته أن يوفق بين العقل (ضمن المنظومة الفلسفية اليونانية)وبين عقائد الكنيسة.

كانت أطروحة الأكويني الأساسية ترتكز على أن العقل والإيمان كليهما من صنع الله، ولا يجوز أن يكون هناك صراع أو تناقض بينهما؛ ولذا فما يمكن إدراكه بالأيمان (الوحي) لا بد أن تؤكدة المعرفة، التي تتشكل عبر الحواس للأشياء والظواهر التي يُضعها العقل _بتفسيرها وتنظيمها – في إطار معرفي .ولا شك أن هذه النقطة الأساسية التي غادر فيها الأكويني والفكر المدرسي منظومة أوغسطين التي أكدت دور الإيمان الوحيد .رغم ذلك، ولأن الأكويني كان مسيحيا في جوهره، وأهدافه، وكان الحفاظ على الكنيسة – ناهيك عن الإيمان بها – على رأس هذه لأهداف، فقد اتفق مع أوغسطين في "أن الإنسان عاجز عن إدراك الخير دون الرحمة والعطف الإلهيين "، لأن ا لإنسان يحمل الخطيئة في جوهره. كما ذهب الأكويني إلى أن الرحمة الإلهية قد تجسدت في السيد المسيح " الذي كان معلما ومسيحيا وراهبا وفداء في آن واحد " (٣٨)قدم الأكويني قاعدة أيدلوجية قوية بمزاوجته بين العقل والإيمان، في مرحلة كانت قواعد الكنيسة الفكرية فيها على وشك الاهتزاز أمام الفلسفة اليونانية وآراء الفلاسفة المسلمين .لكن، وكما كانت كل الظواهر الإيجابية في مرحلة التحول الحرجة تلك من تاريخ الكنيسة الغربية، كان الإيجابي

يحمل في داخله السلبي .ففي مطلع عصر المدرسيين كن "أنسلم" يحاول أن يضع العقل في خدمة الإيمان، وعندما جاء الأكويني جعلهما شريكين متسقين، ولكن القرن التالي سيشهد افتراقهما، وذهاب كل منهما في طريقه(٣٩).

كان الرجل الذي تجرأ على الدفع لذلك الاتجاه هو أيضا مسيحي مؤمن، ولكن بطريقة أخرى .ولد وليام أوف أوكهام (١٣٠٠- ١٣٤٩م)في سري بجنوب إنجلترا، وانتمى لطائفة الفرنسيسكان .وفي عام ١٣٢٤م حين كانت ا لبابوية في مرحلة انتقالها إلى أفينغتون الفرنسية، اتهم بمعاداة الأصول العقائدية الكنسية فهرب من فرنسا إلى ألمانيا، حيث قضى بقية عمره محاربا لعقائد الكنيسة ومعاونا للملك الألماني في عدائه وتنافسه مع البابا .كان أوكهام تجريبيا - بمقاييس عصره - يؤمن بان المعرفة لا تتم عن طريق الصياغة العقلية لملاحظة الأشياء وعلاقاتها، ورفض يوضح الفكرة الميتافيزيقية عن العالم، وبالتالي أطروحة الأكويني في إمكانية معرفة الله عن طريق أدلة من العالم الطبيعي .وقال أن الإيمان بالله هو محض معرفة إيمانية بحتة لا علاقة للعقل بها، موضحا أن " الحدود التي ينتهي عندها العقل هي بداية قوة الله المطلقة المسئولة عن كل ما هو قابل للتحقيق، وهكذا تظهر تلك القوة إلى أي درجة هي غير معروفة وغير مؤكدة الوجود" (٤٠) والمهم أن أوكهام لم يكن وحيدا، فقد وجدت آراؤه العديد من الأتباع والمريدين داخل الإمبراطورية الرومانية المقدسة في أنجلترا.

كانت اتجاهات المدرسيين بمثابة إشارة واضحة على بدء الصدام بين

مرجعية الكنيسة الفكرية والعالم الجديد الذي انفتح عليها بعد الحروب الصليبية .ورغم أن شمس المدرسيين قد غابت سريعا مع إهلال عصر النهضة في منتصف القرن الرابع عشر، إلا أن ليبرالية وتحلل عصر النهضة وغرورها بالإنسان ما كان ممكنا أن تتبلور دون ذلك الاهتزاز المعرفي بالتراث الأوغسطيني للكنيسة .لقد بدأ التحدي لصيحة عالم القرون الوسطى: "كنيسة واحدة وإمبراطورية واحدة لكل البشر"، صيحة الأحادية المتعسفة التي جرت الكوراث على الكنيسة.

بدأت أوربوا تستقبل من جديد تراثها اليوناني الفلسفي في ترجماته العربية ابتداء من القرن الحادي عشر، إما عن طريق طلابها الذين درسوا في الأندلس، أو عبر الكتابات الفلسفية العربية الإسلامية ذاتها لابن سينا والفارابي والغزالي ثم ابن رشد .وكان لهذه الكتابات، إضافة لآثار ابن ميمون اليهودي الأندلسي أثر كبير على المدارس الكنسية .كما أن الحروب الصليبية أصابت أوروبا بصدمة ثقافية وحضارية، وأظهرت إلى أي حد كانت الكنيسة تعيش العزلة وإلى أي حد كان المجتمع الأوروبي يعيش الانحطاط، مقارنة بالعالم الإسلامي(٤١).

سعى بابوات العصور الوسطى المتأخرة لتوكيد سلطاتهم وتوسيع مملكتهم وإحكام قبضة الكنيسة، بشكل لم تحاوله حتى الإمبراطورية الرومانية ذاتها في العصور القديمة .وتوسع بذلك جهاز الكنيسة، بكرادلته ورهبانه وقساوسته ومدارسه وكنائسه .ومع التوسع، ازدادت الحاجة المالية للمؤسسة، وتراكمت الضرائب على الشعوب والقطاعات. واصبح المال مصدر رفاه وفساد في أوساط الكنيسة والاقطاعيات

مرتزقتها، ومصدر شقاء وتذمر للشعوب الأوروبية .انتهى عصر البابوات الأقوياء، حتى وصل الى الكرسي البابوي زناة، بأولاد غير شرعيين وعشيقات، وانحدر الكرسي البابوي إلى مستوى بابوات يشجعون وثنية عصر النهضة ويجارونها، أو باباوات يبيعون مراكز الكنيسة شرها للمال الذي أصبح حكرا عليهم وعلى عائلاتهم .وفي الصراع مع أمراء الإقطاع وملوكه، بدأت الكنيسة في خسارة الجولة تلو الأخرى، وفقدت بالتالي مصادر قوتها المالية والسياسية .وحتى دوائر الطوائف الرهبانية التي أسست لتمثل ذروة الاحتذاء بالأخلاق المسيحية وبداية تحقق حلم بوليس في إقامة "مملكة الرب "أخذت هي الأخرى تفقد عمادها الأخلاقي وانتشر داخلها الفساد في أبشع صوره .وعندما تجرأ ميكافلي(١٤٦٩-١٥٢٧م)في نهاية عصر النهضة على كتابة "الامير "كان بذلك يظهر مقدار ازدراء وتجاهل العقل الأوروبي للكنيسة وقيمها وأخلاقها(٤٢).

وما كان قد أصبح مثارا للسخرية، أن الكنيسة استمرت في التركيز على الدعوة لموت جيد وتجاهلت تحسين حياة رعاياها .في نهاية المرحلة التي امتدت من عام ٩٥٠إلى عام ١٣٥٠م، أصبح واضحا كذلك أن الإنسان الاوربي لا يزال بعيداً عن حالة " الامتلاء بالمسيح" التي بشر بها بولس. كما أن ذلك الانتظار بـ" مملكة الله" على الأرض اصبح انتظارا بلا أمل، وأن تلك القوة الهائلة للنص (الكلمة) التي جاء بها السيد المسيح كانت لم تزل تعبر عن ذاتها في قنوات أرضية، وليست سماوية .ولم تكن المؤسسة الكنسية إلا صورة أسوأ لخيبة أمل المجتمع في إمكانية تحقق النبوءات.

,أصبح التناقض بين المثال والواقع صارخا لدرجة الإحباط، لدى أفراد المجتمع والكنيسة معاً. ولم يكن لتداعي تأثير النظرية أن ينتظر إلا طوفان النهضة ليقوض دعائمها(٤٣) .ساهمت ا لحروب الصليبية في تحرير عبيد الإقطاع من التزاماتهم؛ دفعا لهم نحو معارك الكنيسة المقدسة .وبعد نهاية الحروب، رفض العبيد العودة إلى المزارع، وبدءوا في الاستقرار في المدن التي تضخم حجمها، كما اتسع بشكل خاص الدور التجاري والبحري للمدن المتوسطية الجنوبية بسبب الحرب (٤٤). وبارتفاع حدة الصراع بين البابوات وملوك وأمراء الإقطاع وبروز النزعات القومية والاستقلالية، وجد الملوك في البرجوازية التجارية الصاعدة للمدن حلفاء ضد الكنيسة ومركزيتها؛ مما أطلق دور هذه المدن إلى مداه الأخير، حتى أصبحت هي المراكز الكبرى للعصر الجديد .وساهم في دفع روح الحركة ا لجديدة ضد روح الكنيسة أن أوروبا عرفت، قبل قليل من عصر النهضة، المنظار الحديث، الذي بدأ في كشف عالم مختلف لعالم الكنيسة الأسطوري .كما عرفت البوصلة التي فتحت أمامها طرق البحار نحو شعوب وحضارات وثقافات أخرى، مما أدى لدحض جغرافية الكنيسة التي صورت العالم مسطحا، وموزعا بانتظام حول مركزه في القدس وتحيط به المحيطات، ترتفع فوقه السماء بنجومها وشمسها لإضاءته، وفوق ذلك الرب، وفي عمقه البعيد جهنم وعلى رأسها أمير الظلام .وإلى جانب ذلك كله، كانت الطباعة وصناعة الورق قد انتقلت إلى أوروبا على أيدي المسلمين؛ مما كسر احتكار المعرفة الجديدة سواء على المستوى الجغرافي أو على المستوى المؤسسي(٤٥)

عصفت تيارات العصر الجديد بروح الكنيسة وجسمها معاً .كانت مرحلة النهضة، مرحلة تاريخية ذات ظواهر متعددة ومعقدة التركيب، شملت الفكر الديني و الفلسفي، الآداب والتجارة، العمارة والعلوم .,وما يهم سياق البحث هنا هو ما تعلق أساساً بتأثيرها على المنظومة الفكرية والفلسفية التي سادت في القرون الوسطى ولعل أهم ظواهر النهضة الفكرية كان نمو التيار الذي عرف بتيار الحركة الإنسانية -Human-ismالذي خط معالمه الاولى بترارك(١٣٠٤-١٣٧٤م) ، وعكس نظرة جديدة للعالم والإنسان .فبعكس رؤية القرون الوسطى الكنسية الزائفة والممتلئة بالزهد Asceticismواحتقار العالم، أبدى التيار الجديد إعجابا بالعالم كما هو، ونظر للإنسان نظرة ممتلئة بالثقة، بل وبالغرور ايضا .كان الفكر المدرسي قد أفسح في الوعي الأوروبي -لأول مرة- دوراً للعقل الإنساني وشراكته للإيمان في معرفة العالم واستيعابه، وأوحى- أيضا لأول مرة _فكرة انتظار العالم وخضوعه لقوانين دقيقة، أنه ليس مجرد عالم مبعثر .وجاء فكر النهضة ليؤكد -بإطلاقية لا مثيل لها _على قدرة الإنسان على فهم العالم ومعرفته دون الحاجة للكنيسة وتراثها المعرفي .بل تم بشكل احتجاجي متعمد وصارخ، تجاهل عالم الكنيسة، وخلاصها، وفدائها، وبعثها، سوية .أصبحت أعمال فيرجيل وهوميروس هي مصدر الإلهام الأساسي للإنسانيين ،وليس تاريخ الرسل والقديسين .كما أصبح الجمال الإنساني معبرا عنه في بالتماثيل اليونانية، مرجعاً للفن والدهشة والإعجاب .وإلى جانب محاولات إحياء فن العمارة الروماني- اليوناني، وصف الإنسانيون عمارة القرون

الوسطى بالقوطية، قاصدين بذلك بربريتها، احتقاراً وحطاً من قيمتها(٤٦).

كان بترارك شاعرا وناقداً ومفكرا، وقد قدم لعصر النهضة المثال والطريقة معاً ، ومن هنا جاءت أهميته .وغرق نصه في استعراض الثقة الإنسانية في بيئة واسعة من الحرية الفكرية والأخلاقية، كما ذهب بعيدا في قلب التراث اللاتيني الذي اعتبره تراثه أيضاً (٤٧). وبعده أصبح تعلم الإغريقية والبحث في تراثها سمة لكل عصر النهضة، مما دفع بالروح النقدية خطوات أخرى، وفتح أفاقاً فلسفية جديدة، بل حرك عقلية الكشف والبحث الرياضي والفلكي، كما أخضع النص المسيحي ذاته للتحليل والنقد .لم لا وقد كانت الإغريقية هي لغة بولس نفسه (٤٨) .لكن أهم التحديات التي فرضتها مرحلة النهضة على الكنيسة كانت في بدء تأسيس نظام التعليم الحديث المتمثل في المدارس النظامية القائمة على فكر وثقافة حركة التيار الإنساني والمنفصلة عن الكنيسة .لقد بدأت عملية "علمنة " التعليم، وفقدت الكنيسة بالتالي أداتها الرئيسية في ربط الإنسان الأوروبي بروحها ومرجعيتها(٤٩).

مهدت مرحلة النهضة بفكرها وتحديها للكنيسة السبيل للحركة البروتستانتية(ما يعرف بحركة الإصلاح الديني)، التي وجهت الضربات الأخيرة لروح وجسم الكنيسة الكاثوليكية، المرجع الوحيد وأهم سلطة في أوروبا لعدة قرون .وقد وضع ثلاثة من مفكري عصر النهضة الجسور الرئيسية التي بنى عليها لوثر وكالفن أطروحاتهم التي كان لها أبلغ الأثر في تاريخ الكنيسة، وتاريخ أوروبا وكذلك الموقف من اليهود والمسألة اليهودية.

كان أول هؤلاء روشلين(Reuuchlin١٤٥٥-١٥٢٢)، الذي عاش في المانيا، حيث عبرت حركة النهضة عن ذاتها بصبغة دينية أكثر من صبغة روح النهضة الإيطالية .كان روشلين يتحدث العبرية بطلاقة، وتأثر بشكل كبير بالآداب العبرية خاصة فلسفة الكابالا التي حملت النصوص العبرية(الصوفية) الرهبانية .وقد دافع بجرأة عن التلمود والفكر اليهودي والارتباط المسيحي -اليهودي .ولعل أهم أثر تركه في ألمانيا - حيث عاش لوثر معاصراً له أيضا - أنه أعاد العبرية إلى المحيط المسيحي بعد غياب دام ١٥ قرنا .زار روشلين إيطالية، وتأثر بالنهضة الإيطالية وحركة إحياء اللغة والفلسفة اليونانية، ونقل ذلك إلى ألمانيا، كما تأثر باتجاهات حركة التيار الإنساني، إلا أنه استمر مسيحيا متدينا(٥٠).

ويقف إلى جانب روشلين ، ولكن بطريقة أخرى، ديسيديروس إراسموسErasmus(١٤٦٦-١٥٣٦) الذي ولد في روتردام، ورغم ترسيمه قسيسا، إلا أنه اختار أن يعمل كأكاديمي ومعلم، وقد طاف في حياته معظم البلدان الأوروبية، بما في ذلك بلجيكا وفرنسا وسويسرا وألمانيا وانكلترا، حتى ليكاد أثره يظهر في كل هذه البلدان معاً .وكان من أهم أعماله على الإطلاق طباعة العهد الجديد بنسخته اليونانية لأول مرة في عام ١٥١٦م، وكان يأمل أن يستطيع ترجمة الكتاب المقدس لكل اللغات الأوروبية، كاسرا بذلك تقاليد الكنيسة (٥١) ولا شك أن إراسموس كان مسيحيا في جوهره، ولكنه كان مهموما بإصلاح الكنيسة، فدعا إلى إحياء القيم المسيحية الأخلاقية وإلى السلام في أوروبا، كما أكد على دور العقل المستقل والفاعل باتجاه تحسين وضع الكنيسة والمجتمع .ولكنه في كتابه

الساخر The Praise of Folly سخر من حياة وسلوك الجميع، ابتداء من البابا والكرادلة، إلى النبلاء والفلاسفة والرهبان والتجار، حتى أدنى طبقات المجتمع(٥٢).

كان الثالث من المجموعة التي مهدت في تلك المرحلة لحركة الإصلاح الديني هو جون وايكليف John Wyclif الذي سبق كلا من روشلين وإراسموس تاريخيا، لكنه كان أبلغ أثرا منهما، خاصة في إنكلترا وفي السنوات العشر الأخيرة من حياته أثار أكبر العواصف الفكرية ضد القواعد الأساسية للكنيسة الكاثوليكية .لم تؤكد المصادر تاريخاً دقيقا لولادته، ولكن المعروف أنه كان من مواليد يوركشاير في شمال إنجلترا، وأنه تلقى تعليمه في أكسفورد، ثم أصبح أشهر مدرسيها، في وقت كانت تعتبر فيه أهم جامعة في أوروبا بعد جامعة باريس .وكان وايكلف يعتبر مرجعا في فكر وتعاليم المدرسيين، ومات في عام ١٣٨٤م، بعد أن أصبح علما دراماتيكيا في كنسية القرن الرابع عشر .ولا شك أن الكنيسة – في تلك المرحلة _انحدرت لأدنى مستويات فسادها .وبوجود البابا في أثفنغتون الفرنسية ، ونظرا لحياة البذخ التي كان يعيشها وكرادلته، كانت إنكلترا ومعظم البلدان الأوروبية الأخرى ترزح تحت طائلة متطلبات البابوية المالية، مما جعل لأراء وايكلف الأولى شعبية واسعة.

أعلن وايكلف أن الملكية _كل الملكية– هي حق لله يمنحها من يشاء من البشر مقابل طاعته وعبادته المخلصة، فإن لم يلتزم الإنسان بذلك انتهى حقه في الملكية .ثم طبق تلك المقولة على مؤسسة الكنيسة ذاتها، معطيا السلطة المدنية حق إزاحة رجال الدين عن مواقعهم إن أساءوا استخدام

ملكية الكنيسة .كما أكد وايكلف على أن البابا يمكن أن يخطئ، وأنه كشخصية اعتبارية غير ضروري لإدارة شئون الكنيسة .كما دعا لعزل البابا الدنيوي عن كرسيه .وحتى تلك المرحلة، رحب الملك جون أوف غاونت بدعوة وايكليف ، ودعمه وحماه في مواجهة بطاركة لندن وكانتربري .لكن تصاعد راديكالية وايكليف أبعدت القصر الإنكليزي تدريجيا عن الدعوة الجديدة؛ حتى وقف في المعسكر المضاد لها مباشرة.

في المرحلة الثانية أصبح وايكليف في تماس مباشر مع أعمدة بنيان كنيسة القرون الوسطى، بتأكيده على أن إخلاص الإنسان لا يعتمد على الكنيسة المرئية أو على وساطة القساوسة، بل على الانتخاب الإلهي المباشر .وأدان بالتالي الاعتقاد بالقديسين والأيقونات والآثار (المقدسة) والحج والزيارة، وشن حملة شعواء على فساد الرهبان والطوائف الرهبانية .وهكذا وصل إلى نقطة الفصل الحرجة. ففي عام ١٣٨٠م، قام بترجمة الكتاب المقدس إلى لغة عصره الانكليزية، داعيا إلى أن يتعرف القساوسة على النص تعرفا لصيقا، وأن يصبح الكتاب في متناول العامة لقراءته .وأعلن أن الكتاب المقدس هو السلطة الأعلى ولا سلطة تعلو عليه، (قاصدا الكنيسة بالطبع) وبدأ في تشكيل قوافل من القساوسة غير المرسمين سماهم القساوسة الفقراء، للدعوة للمسيحية ضد فساد الكنيسة في كل مكان من إنكلترا، دون الحاجة للكنيسة ذاتها .وقد عرف أنصاره باسم اللولاردز Lollards.

في عام ١٨٣١م ثار الفلاحون الإنكليز ضد النبلاء والقصر من وطأة الضرائب المتزايدة عليهم، ورغم عدم وجود أدلة تاريخية تؤكد علاقة

اللولاردز بثورة الفلاحين(٥٣) إلا أن النبلاء رأوا في الدعوة الجديدة خطرا على الأمر الواقع .ورغم استمرار الحركة بعد وفاة مؤسسها، إلا أن بطريرك كانتربري أصدر إعلانا في عام ١٤٠٩م بعدم شرعية نسخه وايكليف الإنكليزية من الكتاب المقدس وأمر بحرقها، كما حظر القساوسة غير المرسمين، واطلق حملة واسعة ضدهم؛ مما أدى لإحراق بعضهم علنا. وفي عام ١٤١٥م، أدان مجلس كونستانس الكنسي دعوة وأفكار وايكلف مفصلاً ٢٦٠ تهمة ضده، وأمر بإحراق كل كتبه وفي عام ١٤٢٨م، أمر البابا بإخراج عظامه من القبر وإحراقها وذرها على مياه أقرب نهر.

لكن الشرارة رغم ذلك اطلقت، وفي داخل إنكلترا كانت حركة وايكلف والآثار التي رسبتها، أهم مقدمات حركة الانشقاق الإنكليزية عن الكنيسة الكاثوليكية في المرحلة البروتستانتية.

أما خارج بريطانيا، فكان أهم من تأثر بوايكليف هو جون هس (John Hus ١٣٧٢-١٤١٥م)الذي أصبح عميداً لكلية الفلسفة بجامعة براغ ودعا للأفكار نفسها التي دعا إليها وايكليف، بل أعاد طباعة ونشر كتبه، وجعله محور النقاش الفكري في بوهيمية .ولكنه هو الآخر ووجه بدفاع الكنيسة الشرس عن بقائها وأحرق في ٦تموز /يولية عام ١٤١٥م.

ارتبطت هذه الفترة، من نهاية حقبة الحروب الصليبية إلى مطلع القرن السادس عشر، بمواقف وحظوظ متفاوتة لليهود في أوروبا .ففي المناطق التي ساد فيها تيار النهضة، سواء بميوله الوثنية كما في إيطاليا أو بميوله الدينية كما في ألمانيا، كان هناك ازدهار واضح في حياة التجمعات

اليهودية وارتخاء في قبضة الكنيسة وحملتها ضدها.

ازدهرت المدن(الدول) الإيطالية بشكل ملحوظ في أثناء فترة الحملات الصليبية، وازداد نشاطها البحري والتجاري، وانتشر بالتالي التبادل والإقــراض المالي الربوي ولم يكن هناك من مـــبـــرر لأن يلاحظ الربا اليهودي بشكل خاص! (٥٥) .كما كانت إيطاليا مقسمة إلى عدة دويلات متنافسة فيما بينها، مما سمح لليهود بالانتقال من دويلة لأخرى، كلما اضطرتهم الحاجة لذلك .وفي ظل تلكم الأجواء، لم يمنع الإيطاليون اليهود من الانتماء إلى منظماتهم البلدية والصناعية والتجارية، بل عاملوهم إلى حد كبير معاملة متسامحة .ولكن أهم التطورات التي صاحبت تلك الفترة فيما يتعلق باليهود، تمثلت في ارتباطهم بتيار الحركة الإنسانية وبأجواء الانتعاش العلمي والثقافي السائدة.

فحيث تصاعدت روح العصر الجديد بمعارضتها للكنيسة وتناقضها مع تراثها وقيمها، كان هناك ميل واضح لكل ما هو غريب وخارج وحتى مستهجن من قبل المؤسسة الكنسية .وهكذا لجأ العديد من رجال الدولة والعسكر لتعلم العبرية، مستهدفين التعرف على نصوص الكابالا اليهودية الصوفية ؛ لاعتقادهم بأنها تضم حكمة أجيال وشعب كان ممنوعا عليهم التعرف عليه لعدة قرون، فيما هو يسكن في جنباتهم .كما لعب اليهود بثقافتهم العربية دور الوسيط بين التراث الفلسفي الإسلامي واليوناني وبين مجتمع عصر النهضة، إضافة لدروهم في نقل تراثهم الميموني الأندلسي .ومع غروب القرون الوسطى، بدأت أوروبا تتجه أكثر فأكثر نحو عقلنة العلوم .ففي مجال الطب مثلا، لم تعد شعوذة الكنيسة تكفي

لعلاج الأمراض ووصف الدواء، وبرز الأطباء اليهود بشكل خاص في هذا المجال بما نقلوه عن العالم الإسلامي (٥٦) .ولكن وفي الوقت الذي دخل فيه اليهود إلى مراكز العلم والجامعات الحديثة الإيطالية، كان هناك أيضا تأثر يهودي واضح بتقاليد ومفاهيم العصر الجديد، ولم يكن مستغرباً أن تدخل لكنيس يهودي لتجد عبارات الاحترام والتمجيد لـ "الربة المقدسة ديانا "منقوشة على الجدران .شهدت الجزيرة الأيبيرية آنذاك حركة إحيائية مسيحية قائمة على تقاليد الرهبنة والتقشف، وكانت طائفة الجزويت ذات سمات الانضباط العسكري قد تم الاعتراف بها من البابا منذ عام ١٣٦٧م(٥٧) ولا شك أن خروج أسبانيا عن السياق العام لأوروبا، التي بدأت في التحلل من سلطة ومرجعية الكنيسة، يرجع أساسا لاستمرار الحروب بين الأسبان والمسلمين في شبه الجزيرة الأيبيرية، تلك الحروب التي كانت استمرارا للحروب الصليبية، وتجد حافزها وتغذيتها في الدوافع الدينية .وقد ساعد ذلك على أن تتفادى أسبانيا تيار النهضة، مما سيلقي أثرا كبيرا على تاريخها لعدة قرون قادمة .

وفي ظل النجاحات العسكرية التي حققها الجانب المسيحي الأسباني على مسلمي الأندلس، سادت رغبة هائلة لدى الأسبان في جعل شبه الجزيرة مسيحية خالصة .فكانت هناك حملات دموية لإجبار اليهود ومن تبقى من المسلمين على اعتناق المسيحية؛ حتى اضطر بعضهم تحت أخطار الموت والأبادة لأخذ تلك الخطوة .ومع عام ١٣٨٠م، بدأ التضييق على كل اليهود الذين رفضوا التعميد، وأجبروا على فصل أحيائهم ومساكنهم عن الأحياء المسيحية .وفي عام ١٣٩١م، وفي حمى اضطرابات سادت

أشبيلية وبرشلونة، قتل الآلاف من اليهود ونهبت ممتلكاتهم، وأحرقت معابدهم .وازداد عدد معتنقي المسيحية منهم؛ حتى أصبح المتحولون طائفة كبيرة أطلق عليهم اسم المارنوس Marranos، التي كانت تعني الخنزير في لغة أسبانيا في القرون الوسطى، ذلك أن الأسبان لم يقتنعوا مطلقا بصدق تحول اليهود للمسيحية .واستمر الوضع على تلك الحال لحوالي القرن.

في عام ١٤٦٩م، تزوج فرديناند وإزبيلا، وتوحدت بالتالي مملكتا الأرغون وقشتالة؛ مما أقام كيانا أسبانيا قويا، وما لبث قبل نهاية القرن أن طرد المسلمين من آخر معاقلهم في غرناطة، بعد معارك دموية هائلة .لكن مسلسل الدم لم ينته .فتحت ضغط تصاعد المشاعر المسيحية للمنتصرين، طلب ملك وملكة أسبانيا من البابا في عام ١٤٨٠م تشكيل لجنة للبحث في عقائد المتحولين للمسيحية من اليهود والمسلمين، وهي ما عرفت باسم محاكم التفتيش The Inquisiton وافق البابا، وتشكلت اللجنة، التي قامت في سنوات قليلة بإحراق الآلاف من المسلمين واليهود .ويذكر أحد المصادر(٥٨) أن ١٠ آلاف يهودي قد أحرقوا وعوقب ١٧ ألف عقوبات مختلفة بقرارات محاكم التفتيش .وفي عام ١٤٩٢م، لم تجد المملكة الأسبانية الجديدة بداً من إخراج كل اليهود من أسبانيا، بعد ان أصبح من الصعب التفريق بين المتحولين منهم، ووجدت أدلة عديدة على أن التجمعات اليهودية تقدم الحماية والغطاء للمارانوس .وقد توزع المهاجرون اليهود على المدن الإيطالية وشمال إفريقيا والدولة العثمانية (حيث كان الإسلام يعاملهم أفضل معاملة)، وذهب بعضهم الأخر إلى

هولندا .وسيكون لهؤلاء الأخيرين شأن كبير في التطورات اللاحقة على العلاقات الأوربوية اليهودية في القرون التالية.

أنشأت البرتغال أيضا محاكم تفتيشها الخاصة بها، وما لبثت في عام ١٤٩٦م، أن طردت اليهود جميعا من أراضيها .وبعد ترحيل المسلمين في عام ١٥٠٣م، لم تجد محاكم التفتيش عملا تشتغل به، فبدأت التدقيق في عقائد المسيحيين أنفسهم، وانتشرت نار "التطهير" المسيحي في آلاف البشر وعبر معظم أوروبا.

يفسر مؤرخ يهودي (٥٩) الحملة التي تصاعدت ضد اليهود في تلك الحقبة تفسيرا اقتصاديا، مشيرا إلى أن بروز طبقة التجار الأوروبيين حديثة التكوين أثار تنافسا بين الطبقة الجديدة والدور المالي لليهود في أوروبا .كما ذهب إلى أن طرد اليهود من إنكلترا في عام ١٢٩٠م، لم يكن ليتم، لولا أن القصر والإقطاع الإنكليزي وجدُ مقرضاً ووسيطاً مالياً بديلاً لهم في التجار الإيطاليين والإنكليز الناشئين .ويبدوا من الصعب تاريخياً توكيد هذه النظرية، بل إن الشواهد تشير إلى عكسها .فالنمو التجاري للمدن الإيطالية صاحبه تسامح واسع في التعامل مع اليهود، كما أن استقبال الهولنديين للمهاجرين اليهود من أسبانيا تزامن مع دخول هولندا إلى ساحة التنافس التجاري العالمية .كما أن من الصعب أن تجد في تاريخ إنكلترا في نهاية القرن الثالث عشر _ ما يؤيد وجود نشاط مالي ربوي واسع وملحوظ بين المسيحيين.

ورغم أن بالإمكان إرجاع تطورات العلاقة الأوربية _اليهودية، حتى بداية القرن السادس عشر وبدء الحركة البروتستانتية، لعدة عوامل إلا أن

العامل الأبرز كان هو الدين وسيطرة المؤسسة الكنسية على اتجاهات الفكر والاجتماع في الحياة الأوروبية.

***

حافظ الفكر الكاثوليكي التقليدي – حتى بروز التحدي البروتستانتي للكنيسة الكاثوليكية في الربع الأول من القرن السادس عشر _على موقف ورؤية واحدة لليهود والمسألة اليهودية .ولم يكن هناك في الثيولوجيا الكاثوليكية مكان لمصالحة اليهود مع الكنيسة، دون اعترافهم بالمسيح وقبلوهم التعميد والمسيحية كدين .ولم تكن هناك بالتالي فرصة حقيقية لان تقبل الكنيسة بأي دلالات توراتية حول عودة اليهود إلى فلسطين أو حقهم في إعادة بناء دولتهم على الأرض المقدسة.

تجنب قادة الكنيسة الأوائل اعتماد النص التوراتي أو تداوله في الكنيسة أو المجتمع المسيحي، واستبدلوا بالنص مبادئ وشروحات ورؤى خاصة وضعوها له، فسرت إشارات التوراة نحو عودة اليهود إلى فلسطين على أن المقصود بها هو عودة الكنيسة الكاثوليكية ذاتها(إسرائيل الجديدة) وأكدت الرؤية الكنسية الرسمية على أن اليهود بارتكابهم للخطيئة ومعصيتهم لله، عوقبوا أولاً بالنفي البابلي ،وبإنكارهم للمسيح ورفضه، عاقبهم الله مرة ثانية بالنفي النهائي، وكتب عليهم الشتات .وانتهت بذلك الأمة اليهودية إلى الأبد(٦٠) وفي أحيان كثيرة فسرت الإشارات التوراتية لعودة اليهود إلى فلسطين بأنها إشارات لعودتهم من النفي البابلي علي يد سيروس في القرن السادس قبل الميلاد .كان هذا بالدقة المنهج الذي اتبعه أوغسطين في Civitate Dei أهم أساس للثيلوجيا

الكاثوليكية التي ظلت سائدة حتى القرن السادس عشر .وقد فرقت كنيسة القرون الوسطى بذلك بين الأمة العبرية القديمة واليهود المعاصرين في شتاتهم الأوربي، وعاملتهم بشكل منفصل عن النص التوراتي ودلالاته، مهما كانت تلك الدلالات(٦٠).

لكن عاصفة الحركة البروتستانتية في القرن السادس عشر أطاحت بالكثير من ثوابت الكنيسة .فقد أطاحت أولا :بمفهوم الكنيسة الواحدة، وأدت بالتالي إلى انقسام الكنيسة الغربية إلى عدة كنائس، حيث امتزج الديني بالقومي الصاعد وبطموحات الاستقلال وتشكيل الدولة القومية الحديثة .كما أطاحت الحركة الجديدة ثانيا :بحق الكنيسة الكاثوليكية الوحيد في احتكار تفسير النص وتحديد الرؤية المسيحية .وقد عبر لوثر عن ذلك قائلا بأن لا شيء يعلو على النص (الكتاب المقدس)، وأنه يعلو على الجميع ومن حق الجميع في وقت واحد :كرادلة وبطاركة وعامة. وفي حماة الجدل الذي ثار حول هذه المسألة، تمت عملية إحياء النص التوارتي، الذي أعيد للحياة كاملاً، كتحد للكنيسة الكاثوليكية وعماد آخر للكنيسة الجديدة .كانت الكنيسة الغربية قد دارت بذلك دورة كاملة، وعادت لأصولها اليهودية .وبإحياء النص التوراتي وترجمته للغات الأوربية المتعددة، بدأت النظرة لليهود في التغير تدريجيا، بل أصبحت نبوءات التوراة وأساطيرها جزءاً أساسياً من ثقافة وضمير العصور الحديثة .أما المتغير الثالث الذي جاءت به " حركة الإصلاح الديني "، فكان في قبول كالفن للمعاملات المالية الربوية – وإن حاول أن يضع سقفاً محدداً للربا– واضعاً بذلك اللبنات الأساسية للسوق الرأسمالي .ولم

يكتف كالفن بذلك، بل حرر أيضا الدولة المدنية من سلطة الكنيسة المطلقة في السوق والسياسة.

وبانكشاف الحروب الدينية الداخلية في أوربا في القرن السابع عشر، وانطلق مشروع الاستعمار الحديث بأقصى قوته في أنحاء العالم الأربع. بدأت أوربا منذ عام ١٤١٥م، محاولة احتلال أجزاء من العالم الإسلامي في شمال أفريقيا، وذلك عندما عبر البرتغاليون مضيق جبل طارق إلى الجنوب مدفوعين بقوة الردة المسيحية العسكرية على الوجود الإسلامي في الأندلس .ولكن البرتغاليين كانوا يعرفون أن طاقتهم ليست أكثر من محاولة قضم الأطراف وأن تجربة الحروب الصليبية من الصعب أن تتكرر وفي سنوات قليلة، استطاعوا الالتفاف حول أفريقيا، وكسب مواقع هشة على بحر عمان وسواحل الهند وجنوب شرق آسيا .وفي عام ١٤٥٥م، أعطى البابا حق احتكار التجارة للبرتغاليين في كل المناطق التي وصلتها أو احتلتها سفنهم، مما دفع أسبانيا، القوة المسيحية الناشئة ، على أن تحاول طريقا آخر ومناطق أخرى، وهكذا تم اكتشاف أمريكا(٦٢).

لكن أسبانيا والبرتغال لم تكونا مؤهلتين للاستفادة من تراكم الثروة الهائل الذي جاء به توسع التجارة ونهب " العالم الجديد " ذلك أن وقوعهما معا في المنطقة الكاثوليكية، وعجزهما عن تطوير العلوم والصناعة، واستمر ار ارتباطهما بنموذج كنيسة القرون الوسطى الثقافي والفكري والاقتصادي، كل ذلك أدى إلى أن تنتقل قيادة حركة الاستعمار في إطارها الحديث إلى دول الشمال الأوروبي .إن حركة تطور العلوم ونقلها إلى تقنية وأدوات وقواعد صناعية وإنتاج في أوروبا الحديثة، كانت

حركة مختلفة عن مثيلاتها في أي عصر من العصور ولعل المسألة المهمة التي تجدر الإشارة إليها في هذا المجال وخاصة فيما يتعلق بالفارق بين حركة التقدم العلمي والتقني الأوروبية الحديثة وتلك التي برزت في العصر اليوناني، إن الأخيرة ماتت من داخلها، وإن ديناميتها الذاتية قد تراجعت بالتدريج بعد أن وصلت إلى الحدود القصوى للإطار الذي نشأت داخله(٦٣)، فيما كانت العصور الحديثة قادرة بسوقها الرأسمالي ومشروعها الاستعماري والتحديات المفروضة عليه، أن تشكل محوراً حضاريا لحركة العلوم والصناعة وأفرزت بالتالي آلية خاصة لهذه الحركة لا شبيه لها على الإطلاق في كل التاريخ الإنساني .بدت أوروبا واعية للوحش الجديد الذي بدأ ينمو في أحشائها، في الوقت الذي كانت فيه الكنيسة الجديدة(البروتستانتية)تشعل موجة أخرى من الروح الدينية .وقد دفعت كل هذه التطورات معاً، الثروة وتقدم الصناعة ونمو القوة والروح العبرية للبروتستانتية وعجلة السوق الرأسمالية، نحو أضخم حركة استعمار وهيمنة قام بها اي شعب(أو مجموعة شعوب قليلة) على سائر بني الإنسان، منذ بدأ الإنسان في تسجيل تاريخه .في هذين القرنين الحرجين من تاريخ أوروبا الحديث (من منتصف القرن السابع عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر)كان اليهود قد خرجوا من عزلتهم واضطهادهم في كل المجتمعات البروتستانتية، لتستقبلهم من ناحية الروح العبرية التوراتية الجديدة للكنيسة، ومن ناحية أخرى عجلة السوق الربوي المتسع من أوروبا إلى الامريكتين إلى مناطق المستعمرات في أسيا وأفريقيا.

الهوامش

1-k.s.,latourette,, A History of Christianity, (london:Eyre & Spottiswood ltd., 1964), p.68.

2-T.R..,Glover,The Conflict of Religions in the Early Roman Empire, (New York: cooper Square Publishers, Inc., 1925), p.155-156.

3-T.,ling , A History of Religion Esat and West , (london :The Open University Macmillan Publishers Ltd.,1985) ,p.154.

4-Brandon , s.G.F., The Fall of jerusalem and the Christian, church, (london :2nd Edition, 1957). Ling , Op .cit ., p.155.: انظر ايضاً

5-Brandon ,Op Cit ., p.249.

6-Ibid, p.250.

7-Latouretts, Op Cit., p.75.

8- Ibid,p.81.

9-G.f., Abbott, Israel in Europe, (london: Curzon Press, 1971),p.43.

10-Ling, T., Op .Cit, p.181.

11-Abbott, Op Cit., p.43-44.

12-Ibid , p.45.

13-Ibid, p.60.

14-M.I.,Dimont, Jews, God & History, (New york: signet Books, 1962), p.210.

15-H.A.L., Fisher , A History of Europe, (London:

1963),p.172.
16-G., Leff, Medeival Thought: St.Augustine to Ockham, (London: 1958),p.25
17-Ibid, p.30.
18-latourette, Op Cit., p.175.
19-Dimont, Op Cit., p.215.
20-Abbott, Op Cit., p.63.
21-Ibid,p.68.
22-Dimont, Op Cit., p.214.
23-Abbott, Op Cit., p78-79.
24-DIMONT,OP.CIT.,P.214.
25-latourette, Op.Op.Cit.,p.409.
26-T.A.,Archer ,& C.L.,kingsford,The Crusades, (New York : Putnam's G.P.& Sons ,1894).
27- لمزيد من التفاصيل انظر
Ainbroisc,The Crusade of Richard Lion - Heart, Translated into English by hubert, M.J., (New York :Columbbia University Press 1941).
28-Villehardouin and Dejoinville,Memoris of the Crusades, everymen's library 333, (New York : Dutton, E.p.& Co. 1908);latourette,Op.Cit.,P 413
29-B.w., Tuchmann , bible and the Sword, (london : Macmillan , 1983),p.53
30-Dimont ,Op.Cit ,p.220

للمزيد من التفاصيل حول أوضاع اليهود في أوربا المسيحية إبان مرحلة الحروب
31-: الصليبية ، انظر
Abbott, Op.Cit .,pp.83-104.
32-Cambridge Medieval History, (Cambridge : Cam bridge University Press , 1911), Vol. II. Chap. VII.
33-W.H., lecky , history of Rationalism , (New York :Appleton , D.& co., 1906), Part II,p.266.
34- انظر العديد من القصص والأحداث المماثلة
J.C., dansty , THe English Crusaders, (london :, 1849).
35-Michand , J.F., history of the Cru sades, (london : 1852), book VI.
36-Abbott , Op.Cit ., P 113.
37-: لدراسة واسعة مفصلة حول المدرسين انظر
B., Samelley, the study of the Bible in the middle
38-N.(Ages, (Oxford : blackwell , basil , 1952), 2nd
Smart , The philosophers and Relgous Truth , (london: 1946), p. 94.
39-ling , Op.Cit., p.282.
40- leff,Op.Cit .,p.290.
41-latourette, Op.Cit., p.495-498.
42-Ibid .624-641
43-H.J.,Randall, The Creative Centuries,(london: longmans, 1974), p. 285. and latourette,p. 595-597

44-Dimont, Op.Cit.,p.217.

45-Randall,Op.Cit.,p.256-263

46-Latourette, Op. Cit., p.605.

47-Randall, Op Cit., p286.

48-H.J.,Maine, Village communities, The Rede Lecture, (London:1875), p.338,cited in Randall, Op Cit., p.288.

49-Cambridge Modern History, (Cambridge: Cambridge University Press, 1902),vol.I,p.556.

50-Dimont, Op Cit., p218.

وانظر أيضاً حول حياته وأعماله مقالتين في :

S.A., Hirsch, A Book of Eassaya, (London: Macmilan, 1905).

51-Cambrdge Modern History, Op Cit.,Vol.I p.571.

52- حول حياة إراسموس وأعماله، انظر:

P.,Smith , Erasmus: A Study of this Life,Ideals and Place in Histtory, (New york:Harper& Brothers, 1923).

53- ول حياة وأعمال جون وايكليف ، انظر

-G.M., Trevelyan, England in the Age of Wycliffe, (New York: Longmans, Green &Co ., 1929; H.B .,Workman, John Wycliffe: A Study of the English Medievals Church, (Oxford: The Clarendon Press, 1926), 2Vols.

54-Latourette, Op Cit., p.665.
55-Lady Magnus, Outlines of Jewish History, (Lon don: Vallentine, Mitchell & Co.Ltd, 1963.P.167.
56-Abbott, Op Cit., p. 182-195.
57-Latourette, Op Cit., p. 655-659.
58-نظر عرضاً سريعاً لتطورات أوضاع اليهود في أسبانية:
Lady Magnus Op Cit., p.109-115.
59-Dimont, Op Cit., p.224-225.
60-R., Sharif , non -Jewish Zionism , (London : zed Press, 1983),p.10.
61-L .I., Newman, Jewish Influence on Christian Re-form Movements, (New York :AMS Press Inc., 1966), p.19.
62-M. S., Umar , The Role of European Imperialism in Muslim Countries, the Islamic quarterly , Vol .32, No.2, Second Quarter, 1988, p.77-100.
62-B.Farrington, Science in Antiquity, Hom Univer-sity Library, p.227.Cied in Randall, op.cit., p.278.